حيرة الفنّ والإنسانية

بقلم انور المعدّاوي

استاذي العزيز

أتعرف الشعور بالحيرة ؟ . . الحيرة المقلقة المضنية التي تتغلغل في طوايا الانسان فلا يلبث إلا ان ينتفض كالمحموم ثم لا تلبث الدنيا كلها .. دنيا ذلك الانسان إلا ان تنتفض .. تنتفض بكل ما فيها من مُثل وقيم ، وبكل ما تحمل من تماثيل ومحاريب ؟ .. حتى اذا استحال ذلك كله الى ركام .. ركام ثقيل يخنق حتى الأنفاس ،تمنى ذلك الانسان مخلصاً ومن اعماق قلبه، ان يموت ؟!

أتعرف قصة ذلك الشعور ؟ أليس لها فصول في حياتك ؟ ألم تندس تلك الأمنية السوداء يوماً بين أمانيك؟ معذرة لكل هذه الأسئلة لأنني اشبه برجل فقد وحيده ، وفقد معه عقله ، ومضى في الطرقات مذعوراً يسأل كل من يلقاه : ألم تره يا سيدي ؟ .. ولدي .. ولدي الجميل المحبوب .. ألم يجذب طرف ردائك وهو يسألك عن الطريق الموصل الى البيت . . بيتي بالطبع .. ألم تره يا سيدي ؟ ! إنني اشبه هذا الرجل لأنني انا الآخر قد فقدت ولدي .. معذرة يا سيدي ! إنه لم يكن ولداً واحداً بل كانا شقيقين .. ومع ذلك فقد فقدتهما هنا في شوارع القاهرة .. تلك المدينة التي تسرق الأطفال ! !

ولكن لماذا ابكي عليهما ؟ انني لم افقدهما يا سيدي ! لقد اضعتهما .. بل انني اشعر بانني ما زلت اخفي عنك شيئاً .. انني .. انني قتلتهما .. واليك يا سيدي قصة ولديّ :

لقد كان الولد الاول وديعاً حلواً حملت فيه مشاعري يوم كانت ترضع لبانها من امي .. وكان اسمه « الدين » ! كان يبعث في قلبي حماسة حلوة ، وسعادة أليفة ، وكان يشعشع حياتي بضياء شفيف ، وكان يصنع لي احلاماً رائعة عشت في ظلها عمري الاول .. ثم .. ثم كبرت .. ولم تكبر الاحلام ! انه يصنعها دائماً من نفس الخيوط القديمة . التي كنت أهدهد في ارجوحتها صباي الغرير ! إنه يرسم لي طريقاً تضيق به قدمي البشرية ، ويعزف لي لحناً لا يرقص على إيقاعه قلبي . . ويهتف بي دائماً في شبه صلاة : انا .. اتعرف من انا ؟ انا مستقبلك . . مستقبلك القريب والبعيد فلا تنشد مستقبلاً سواي . . انا امتدادك فلماذا تتطلع الى آفاق اخرى ؟ اناكل شيء بالنسبة اليك .. لديّ افراح سماوية .. لديّ آلام مقدسة . . لدي رؤى واحلام .. لديّ كل ما تريد .. فلماذا تغلق عينيك المتطلعتين خارج اسواري المقدسة ؟ انا وريثك الوحيد فلا تنجب اطفالاً سواي . . انا منظارك الوحيد الذي لن تبصر بدونه حقائق الاشياء ! . . واحسست إحساساً رهيباً بان هذا الصغير انما يرسم لي خط السير ، ويحدد الغاية والهدف ، ومن هنا ادركت في وضوح انه يسلبني ذاتي .. ويعطيني ذاتاً اخرى .. ذاتاً قد تكون قوية وقد تكون موفورة .. ولكنها لن تكون ذاتي بأية حال ! ومن هنا ضقت بهذا الصغير وارتكبت جريمة لا ادري ماذا سيكون حسابها عند الله .. لقد خنقت صوته الرقيق بين ضلوعي .. وتلك يا سيدي قصة الولد الاول ! !

اما قصة الولد الثاني فتبدأحينما حملت مشاعري بجنين آخر، احسست به يتحرك حين كانت تلك المشاعر ترضع اثداء الكتب .. وكان اسمه « الفن » ! ولا اكتمك انني احببت هذا الصغير الجديد حباً جارفاً .. لقد تأملته طويلاً فماذا رأيت ؟ احلامي الخفية . . ملامحي المستسرة .. اشواقي الحبيسة . . اعماقي كلها .. كلها .. بما فيها من رؤى ومشاعر ، واصداء وهواتف ، وأنات وأغنيات ! وسرت مع طفلي في شوارع الحياة .. كانت يده الصغيرة لا تفارق يدي . . وكلانا لا يكف عن الثرثرة .. واذا احببت ان ابصر صورتي نظرت في عينيه ! كنت لا اتركه حتى وانا في فراشي احلم ، حتى وانا في الحمام اغني .. ولم اكن وحدي اغني .. كان هو الآخر يغني لي اغنية حلوة يهدهدني بها حتى انام .. وكانت تبدأ بهذه الكلمة الساحرة : انت .. انت .. اتعرف من انت ؟ انت إله صغير، ولكنه يخلق كائنات جميلة لا تقل روعة عما يخلق الاله الآخر .. الاله الكبير .. لماذا تنظر الي هكذا في دهشة ؟ ألست من مخلوقاتك التي ستشهد دائماً بقدرتك ، انت ايها الاله الصغير ؟ وكنت حين يتحدر النوم في جسدي الراقد اشعر كأن الفراش الذي انام فوقه عرش عظيم ! يا عجباً لقد بدأت كلماته تحدث اثرها في نفسي .. انني اشعر شعوراً هائلاً بانني وحدي الذي يحمل سر الحياة في قلبه لانه يعرف سر « الخلق » ، تلك المعجزة التي تفرد بها الاله الكبير .. اما غيري ؟ وهنا احسست بأن

ذاتي تمتلىء .. تمتلىء حتى لا تتسع لشعور عـــابر بالضعف او اليأس او الخذلان .. وانى لهذه المشاعر ان تجد طريقهـا الى قلبي .. قلبي الخالد في دنيا الخالدين ؟ !

وجاء يوم لا استطيـع ان انساه .. يوم عرفت فيه ضآلتي كمخلوق وتفاهتي كخالق .. وعرفت فيه ايضاً عقوق ذلـك الطفل المحبوب ! كان ذلك حين مرضت ذات مساء وتوالت عليّ بعد ذلك امسيات قاتمة ، واحسست ان كياني كله يـذوب كما تذوب قطعة السكر في قدح من المـــاء .. أرأيت الى تلك الفقاعات التي تعلو سطح القدح اذ ذاك حاملة ضراعات السكر الغريق ؟ انها يا سيدي كانت خواطري ومشاعري تطفو عـلى السطح الخانق ضارعة جازعـــة .. تنشد العون والعزاء من ولدي .. ولدي الذي لم تكن تفارق يده الصغيرة يـدي .. انه الآن راح .. راح بعيداً حتى انني لم أعد أراه! واحسست ان كل ما قاله لي خرافة ضخمة .. خرافة بغيضة .. بل انـه نفسه اكذوبة لا تفترق عن مجموعـة أكاذيبه الماضية ! من انا ؟ غريق .. ما الخلود ؟ انه لا يساوي حتى طوقاً من الفلين .. انه عود من القش لا تناله يدي الغارقة ! ولدي ؟ انه احـدى الاكاذيب التي صدقتها ببلاهة .. اوه ، ماذا قلت ؟ احـدى الاكاذيب ؟ يا لي من عاق يجحد افضال بنيه .. ها هو ذا ولدي يعود مسرعاً .. انه آت من بعيد .. آت لينقذني من غـــير شك .. ها هو ذا يقترب .. شد ما تغيرت ملامحه ! يا عجبـاً انه .. انه ولدي الاول الذي قتلته .. انه وحـــده الذي استطاع ان يقف الى جانبي في تلك اللحظات ، وها هـــو ذا كياني يندفع نحوه كما تندفع الفقاعـة نحو السطح ، وان كانت بعد قليل ستنداح !!

إنه يمنحني قوة عجيبة وأملاً عريضاً اشعر معهما بانني لا اخاف الموت ولا ارهب العدم ، ولا اجد فارقاً بين العـالم المنظور وغير المنظور . انني وهو الى جانبي لا اخاف الموت .. ولكن لماذا انسى ان حياتي معه نوع من انواع العدم ؟ لأنها لم تكن حياتي بحال ؟! انني امقتها معاً ! امقت الأول لأنه لا يقف إلى جانبي الا في لحظات الضعف ، وامقت الثاني لأنه يتخلى عني في تلك اللحظات !! انني اريد ولداً آخر يا سيدي ! ولداً لا يتخلى عني في اية لحظة من اللحظات ، ولداً وفياً لا تفارق يده الصغيرة يدي حتى ونحن في طريقنا الى القبر !

انني الآن اعيش بغير اولاد حياة مشدوهة حائرة ، حيـاة يغتال الزمن لحظاتها المذعورة ويلعق بلسانه العريض مـا تبقى فوق شفتيه من أنات .. انني يا سيدي في حاجة إلى مثل .. مثل اعلى يلبي اشواقي كلها ويمتص طاقاتي كلها ، ولا يتخـلى عني في لحظة من لحظات الحياة ! فهل يا ترى أجده لديك ؟!

محمد ابو المعاطي ابو النجا

يسألني القصاص المصري الفاضل ، الذي تتبعت باعجـــاب انتاجه القصصي على صفحات «الرسالة» و « الرواية» و «الآداب» يسألني هل عرفت هذا اللون من الحيرة ؟ هذا اللون القاتم الذي تستخدمه ريشة القدر احياناً وهي ترسم لوحة المصير في حيـاة الناس ، وتعكس هذا القتام على حواشي اللوحة فيبدو المشهـد في رؤية العين وإحساس القلب وهو غارق في الظـــلام ؟ نعم يا صديقي لقد عرفته ، وتذوقته .. عرفته مرتين ، وتذوقتـه في جرعتين ، وما زال فم وجودي يغص حتى اليوم بمرارة ذكراه !

ذات صباح ، وكان ذلك منذ بضعة اعوام ، سأل صاحب هذا القلم نفسه .. سألها وهو يشهد ليـلة تنطوي وفجراً يبزغ : «ايمكن ان تمر تلك الليلة على انسان كما مرت عليه؟» وسمع جواب نفسه منبعثاً من اعماقه : محال ! وكانت ليلة عيد .. ولا يذكر انه احس القفر في حياته كما أحسه في تلك الليلة ، ولا يذكـر انه انكر دنياه كما انكرها في تلك الليلة ، ولا يذكر انه استشعر الوحدة والغربة والحرمان كما استشعرها في تلك الليلة .. لقد كان يشم في كل شيء حوله رائحة الموت ، الموت الكريه البشع الذي يتراءى للاحياء في الليالي السود ، ويلف الآمال في اكفانـه ، ويهيل على جمال الحياة اكوام التراب !

واشرقت شمس العيد ترسل ضياءها الى قلوب النـاس الا قلبه .. لقد بقي وحده في الظلام ؛ ظلام الأماني الـتي ذوت ، والفرحة الكبرى التي انطوت ، والدنيا التي ذهبت الى غـير معاد . ولأول مرة منذ سنين شعر بدافع قوي الى البكاء .. حاول ان يبكي ولكنه لم يستطع ، لقد تجمدت الدموع في عينيه ، ثم تحدرت الى قلبه قطرات : فيها من فورة عاطفته ، وفيها من وقدة وجدانه ، وفيها من لوعة حرمانه .. وفيها من وهج أساه !

أرأيت يا صديقي الى تلك الحيرة ؟ حيرة الأمس التي كانت اشبه بحيرة الفكرة الشريدة المعذبة التي لم تجد دفء خاطر تأوي اليه ؟ او حيرة الجندي الذي خرج من المعركة وهو معفر الرأس بغبار الهزيمة .. ثم عاد بعد ذلك ليجد احبابه تحت ركام الانقاض ! لقد كانت حيرة فيها الشعور بالقلق ، والشعور بالعجز ، والشعور

بالضياع ، ومصدر هذه المشاعر المتعددة واحد لا جدال فيه ، هو فراغ الحياة من امرأة .. امرأة « بعينها » يا ويحنا اذا لم نجدها ، ويا ويلنا اذا وجدناها .. ثم فقدناها .. ثم عشنا من بعدها نفتش عن النموذج ونبحث عن المثال !!

قبل ان يجدها صاحب هذا القلم كان يعيش في مثل حيرتك؛ هذه الحيرة التي يفقد صاحبها الايمان بكل شيء : الايمان بالنفس، والايمان بالدين، والايمان بالفن، والايمان بكل مثل اعلى يدثر امجاد الحياة بوشي الطموح !

.. « كان يسير في طريق الحياة ولا يعرف الى اين .. لم يكن له هدف يسعى اليه ، ولم تكن له غاية تسدد خطاه ، ولم يكن له امل . كل ما يذكره انه لقي من مرارة السير في الصحراء ما لم يلقه انسان : لقي فيها الشوك ، ولقي فيها القيظ، ولقي فيها الصخر، وذاق ما ذاق من سفي الرمال ولفح السمائم» وحين وجدها هتف من اعماقه وهو يصور نقلة الشعور من حال الى حال : « ويذكر انه لمح يوماً على البعد واحة ، وانه وقف مشدوهاً لا يصدق عينيه ، وقال لنفسه : سراب ! ومضى في طريقه لا يلوي على شيء .. وفجأة ، قالت له قدماه تمهل ، وقالت له عيناه تأمل ، وقالت له نفسه : من هنا يا صاحبي الطريق .. لقد آن للاغب ان يستجم ، وللمجهد ان يستريح وللسفينة الحيرى في خضم الحياة ان تبلغ الشاطىء !

ونظر الى السماء نظرة طويلة ، حار فيها دمع واضطرب بريق .. واحة في صحراء ؟ ونبع يتدفق ماؤه ؟ وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ؟ كل هذه الاشياء يا رب له ؟ أين كانت وأين كان ؟! وابتسم للحياة من قلبه ، وأضفى عليها من روحه وقبس لها من حبه ، وألقى بالماضي كله في مهاوي العدم .. لقد كان يعيش في حاضره؛ حاضره الذي داعبته رؤى من المستقبل الباسم ، ورقصت على حواشيه أطياف من الأمل الوليد ، وانطلقت من أرجائه صيحة العمر الذي بعث .. هناك حيث ينتظره المجد تدفعه اليه يد حانية ، وقلب يخفق ، وبسمة تشرق، وروح برح بها الشوق الى لقاء روح ، ويا بعد الدنيا التي كانت في وهمه والدنيا التي تراءت لعينيه » !

قال ذلك قبل ان يلقاها ، وحين لقيها ، وسكبت في وجوده اول قطرة من قطرات الايمان .. وعندما تعاهدا على ان يهب كل منهما للآخر نفسه ، ويومه ، وغده ، وكل دنياه ، لم يكن يعلم ان هناك يوماً في قبضة المجهول سينزع من كتاب العمر كل صفحة سجلت فترة البعث وحددت لحظة الميلاد ! إنه اليوم الذي فقدها فيه وفقد معها كل ما انجبت له من اطفال ؛ اطفال لا تلد مثلهم كل الأمهات لأنهم كانوا عباقرة .. كان فيهم طفل يهيم بالجمال ويعشق النغم ، واسمه الفن .. وكان فيهم طفل يعيش بين البشر ولكنه يتصل بالله ، واسمه الدين .. وكان فيهم طفل يسير على الأرض ولكنه يتطلع الى السماء ، واسمه الطموح .. وكان فيهم طفل يذوب حناناً ويفيض رقة ، واسمه الحب .. وكان فيهم طفل ترتسم على قسماته مخايل النبوة وبوادر المعجزة ، واسمه الالهام .. خرجت امهم من حياتي في ليلة عيد ، وخرجوا هم وراءها يشيعونها الى القبر، ثم هاموا بعد ذلك على وجوههم في الطرقات !!

أعرفت يا صديقي لماذا فقدت أطفالك ، أو لماذا تعيش بغير أطفال ؟ إن الاطفال العباقرة لا تنجبهم غير ام عبقرية .. امرأة « بعينها » كما قلت لك .. امرأة إذا فقدنا الايمان بالنفس ، كانت هي اليد الخفية التي تدفعنا بعنف الى الامام .. وإذا فقدنا الايمان بالفن، كانت هي الشرارة الفكرية التي تشعل النار في الرماد .. وإذا فقدنا الايمان بالدين ، كانت هي السلم الذي نرتقيه لنصعد قدماً إلى حقيقة الله !!

إنها المرأة التي « تلمح » الدمعة وهي تتحدر من حنايا الضلوع الى اهداب الجفون ، فتجففها قبل ان تنسكب ..

إنها المرأة التي « ترصد » البسمة وهي تتدفق من اغوار الشعور الى اطراف الشفاه ، فتعانقها قبل ان تنطلق ..

إنها تلك التي تغرس طريق الحياة بزهر الشوق، وترش دروب النفس بعطر الأمل ، وإذا شاءت صبّت الزهر والعطر في قارورة الوجدان !!

إنها المرأة التي نصطلي دفء هواها ونحن في شتاء العمر ، فلا تصطك ايامنا من برد الوحدة ولا ترتجف لياليا من صقيع الوحشة ، ولا تهتز نوافذ أرواحنا كلما عصفت من حولها رياح الفراغ .. إنها تلك التي تغني مشاعرنا فلا تتسول ، وتؤوي عواطفنا فلا تتشرد ، وتشعرنا ونحن بجوارها اننا لم نكن يوماً فقراء بلا ثروة .. وغرباء بلا وطن !!

هذه المرأة ، ابحث عنها يا صديقي .. فتش عنها في كل مكان .. وإذا لم تجدها اليوم فعش على الأمل الجميل في انك ستجدها غداً .. ان جمال الأمل يتمثل في قدرته على جعل الخيال واقعاً والوهم حقيقة .. وإذا وجدتها يوماً ما، فهنيئاً لك. عندئذ ستشعر بكبريائك كمخلوق ، وبعظمتك كخالق .. وعندئذ لن يحار الفن ، ولن تحار الانسانية !!

القاهرة — **انور المعداوي**